المقتطف

الجزء الرابع من المجلد السادس والتسعين

١ ابريل سنة ١٩٤٠ — ٢٣ صفر سنة ١٣٥٩

العلم يقهر المرض

تمهيد الطريق الى قهر « الانفلونزا »
التي تعدُّ ضحاياها بالملايين

مرض الانفلونزا في عرف الناس ليس مرضاً يبعث على الرعب والذعر، كالجدري والهواء الاصفر والحمى الصفراء والطاعون. ومع ذلك فدراسة تاريخ الحضارة تبين انهُ ليس بين الامراض المعدية مرضٌ اكتسح مناطق من الارض وحصد عدداً من النفوس كما اكتسح مرض الانفلونزا وحصد، بين أول ذكر لهُ في تاريخ الطب في كتابات أبقراط وليثيوس ووباء ١٩١٨ — ١٩١٩. ففي ربيع سنة ١٩١٨ تفشى وبأء خفيف من الانفلونزا ثم أصبح الوباء حاداً في الخريف عندما ظهرت اصاباتهُ في جميع بلدان الارض فاصيب بهِ ملايين من الناس في جميع القارات ولم ينج منهُ سكان جزائر البحار ومات بهِ نحو عشرين مليوناً من الناس

بلغ عدد الوفيات بهِ في الولايات المتحدة الاميركية ٥٤٨٤٥٢ في العشرة الاشهر التي أولها شهر اكتوبر سنة ١٩١٨ حتى الاطباء الذين كانوا يعالجون المرضى رأوا ضحاياه وسجلات الجمعية الطبية الاميركية لسنة ١٩١٨ تبين ان عدداً كبيراً من أعضائها قضى بالانفلونزا والنمونيا. وزاد معدل الوفيات بهِ في بعض بلدان أوربا وآسيا عنهُ في الولايات المتحدة الاميركية. فقد خسرت الهند اثني عشر مليوناً من سكانها بهِ. ونقلت البواخر العدوى عبر البحار والمحيطات، فالسفينة «ديمارا» التي أبحرت من لشبونة في سبتمبر ١٩١٨ حطت في ريودي جانيرو يوم ١٧ من سبتمبر ثم أبحرت منها الى مونتفيديو باوروغواي ووصلت بونس ايرس بالارجنتين يوم ٢٥ سبتمبر،

فتفشى وباء الانفلونزا في كل من هذه المرافىء الاميركية بعد وصول هذه السفينة اليها بضعة أيام

وبلغ عدد الوفيات في جاوى ومادورا من جزائر الهند الشرقية ٤٠٢١٦٣ وفاة في شهر نوفمبر وحده حالة ان مجموع الوفيات بالكوليرا والجدري والطاعون الدملي لم تزد على ١١٥٩٨ وفاة في سنة ١٩١٨ كلها . وفي جزيرة تاهيتي مات سبع السكان (وعددهم ٤٥٠٠) بالانفلونزا بين اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر واليوم العاشر من شهر دسمبر اي في خلال خمسة عشر يوماً . ويقول الدكتور ادون جوردان أحد أساتذة جامعة شيكاغو — وهو الذي درس هذا الوباء دراسة احصائية مدققة — ان وباء سنة ١٩١٨ « أصاب على الغالب كل أسرة في العالم »

حدث كل هذا من نحو عشرين سنة . ولكن الاهتمام بالحرب العالمية حينئذ طغى على الاهتمام بما أصيب به الناس في كل مكان من خسائر فادحة بسبب هذا الوباء الذي حصد من النفوس في بضعة أسابيع أكثر مما حصدته الحرب في أربع سنوات

والتاريخ شاهد على ان الامراض والاوبئة المكتسحة تجيء عقب الحروب والمجاعات والاختلالات السياسية والاجتماعية ، وقد أشار المؤرخون الى ما هنالك من صلة بين وباء الطاعون في عصر الامبراطور يوستنيانوس وسقوط الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ثم الى ما هنالك من صلة على ما يلوح ، بين وباء الطاعون الذي اجتاح اوربا في القرن الرابع عشر واختلال حضارة القرون الوسطى وتمهيد الطريق للحضارة الحديثة . واصيبت اوربا بأوبئة مجتاحة في القرن التاسع عشر عقب حروب نابليون كما جاءت موجة الانفلونزا الطاغية في سنة ١٩١٨ — ١٩١٩ في عقب الحرب العالمية الماضية

أما ونحن نعاني حرباً كبيرة اخرى فلسنا ندري اي وبإ يتهيأ لاجتياح العالم . ولكن الماجور جرينوود استاذ علم الاوبئة والاحصاءات الحيوية في مدرسة علم الصحة والطب الاستوائي بلندن يقول « اذا اضطرت حضارتنا بسبب ما نشاهده من القلقات الاجتماعية والاقتصادية ، ان تجتاز فترة اخرى من الاختلال أو التفكك الاجتماعي كفترة القرن السادس او مستهل القرن السابع عشر في المانيا ، فالمحتمل ان يكون ذلك الوباء الحاصد مرض الانفلونزا اكثر مما يحتمل ان يكون حمى النفوس أو الطاعون »

ومهما تكن النتيجة السياسية التي تسفر عنها الحرب الثائبة الآن فمما لا ريب فيه ان العالم لم يتغلب على الانفلونزا بعد . فقد كانت الاصابة بها وبائية في السنة الماضية في غير منطقة واحدة من سطح الارض . ومات بها في شهر يناير سنة ١٩٣٩ في انكلترا وويلس واسكتلندا اكثر مما مات بجميع الامراض المعدية جميعاً . وتأخر تفشيها في الولايات المتحدة قليلاً . فلم تبلغ اشدها الا في مارس عند ما بلغ معدل الاصابة بها اكثر من ثلاثة اضعاف المعدل السوي . وأقبل شهر يوليو من سنة ١٩٣٩ ولا تزال آثارها بادية

أمثالنا — أستغفر قارئي الرياضي — ان يدرك ذلك العز غير درج بصعده

كثيراً ما فكرت . قبل ان اقدمت على السؤال . في هذا الشيء المفخّم المتخمّ بالمحامة . المكدّس بالفُرش المصفّف بالوسائد المرفّه بالاطلس والحرير . المبادي بكثرة الزركشة كالعروس المجلوة . كثيراً ما فكرت في ماهيته — مهمته — سبب وجوده . فهل هو من الاثاث ام من توابعه . هل هو للزينة ام للاستعمال ؟

وهل يجوز في الحالين ، غير العروسين ... اذن هو سرير الليلة الاولى . فكرت ، أقول ، ثم فكرت . وقد يُستعمل بضع ليالٍ بعدها ، وقد يُسخر لشهر العسل ، بأجمعه ، ثم يترك هنالك لعسل الذكرى ، وان حامت عليه الذباب . فكرت ففكرت ، ثم تشجعت فسألت ، فعلمت انهُ لأهل البيت في الايام العادية ، وللضيف في الاعياد

فشرحها رب البيت قائلاً : ويوم الضيافة عندنا عيدٌ . وكما انهم يستعملون هذه السدة الملكية للنوم ، فهم يستعملون الردهة الفخمة للمآدب ، فيكرمون فيها الضيف اكرامين في مأكله ومنامه

جلسنا حلقة حول طبق من النحاس ، على طريقتنا البدائية في القرن الماضي ، وزطحنا الزاد بالايدي ، على الطريقة العربية في شبه الجزيرة اليوم . غير ان المضيف لا يشارك ضيوفه في الاكل بل يخدمهم وهو واقف يشرف على الخدم

وكان الخدم تلك الليلة من شبان كتائب حزب الاصلاح في أثوابهم — قمصانهم — الرسمية وكان الحديث في تطوان وتاريخها . فأخبرني جاري ان العلامة الفضال الحاج احمد الرهوني — الرئيس السابق لمجلس التعليم الاسلامي الاعلى — كتب تاريخ تطوان في عشرة مجلدات — غير مطبوعة — طبعاً . وقد أهدى النسخة الخطية الى الاستاذ الطريس يوم زفافه

تاريخ تطوان في عشرة مجلدات ! ياساتر يا معين ! فكيف السبيل الى الانتفاع بعلم الشيخ الرهوني ؟ خطر لي خاطر اذكره الآن ، وأسجل في ختام هذا الفصل شوقي وشكواي

اني أشكو مضيفي الكريم صاحب النسخة الخطية . لا لانه طمعت بها فأمسك — لا والله — فقد أعربت عن رغبتي بنشر نموذج منها ، فتعلم دوائر الادب العربي بالكنز التاريخي ، فتأبى ان يبقى كنزاً دفيناً ، وهدية عرس . بل رغبت في نشر تاريخ تطوان بالشكل الملائم ليمتد قراءه هذا الزمان الضيقة . فسألت عبد الخالق أن يأمر أحد كتابه بتلخيص كل مجلد في صفحة واحدة ، فأضعها أنا في بوتقتي وأغليها ، ثم اقدم لقراء هذا الكتاب خلاصة الخلاصة . فأجاب بالايجاب . أي انهُ وعد بأن يفعل

وكررت الطلب فكرر الوعد . وتكرر الوعد فتكرر الطلب . فعلمت وتيقنت ان الوعود في المغرب مثلها في هذا الشرق العربي ، واننا والمغاربة اخوان ، حقًّا اخوان